

المبحث السادس: النفخ والبعث:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: النفخ في الصور:

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معناه:

عبارة «النفخ في الصور» مكوّنة من كلمتين، هما «النفخ» و«الصور»: فالنفخ معروف.

وأما الصور: فهو قرن يُنفخ فيه، وقد ورد أن الذي ينفخ فيه على التعيين هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

المسألة الثانية: الأدلة عليه:

جاء ذكر الصور في القرآن في أكثر من عشرة مواضع؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

(١) ينظر: «مسند إسحاق بن راهويه» (١٠)، وغيره.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ فَقَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»^(١).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ، وَقَدْ التَّقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَضْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفَخَ فَيَنْفَخَ». قَالَ الْمُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ رَبِّنَا»^(٢).

المسألة الثالثة: عدد النفخات:

اختلف العلماء في عدد النفخات على رأيين:

الأول: أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ثم بعدها نفخة الصعق والموت، ثم بعدها نفخة البعث.

الثاني: أن النفخات اثنتان: نفخة الصعق، يفزع الناس منها في أولها ثم لا تنتهي حتى يموت الناس جميعا. والثانية: نفخة البعث، يُنفخ فيه فيبعثون، ويقومون من قبورهم.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٣٢٤٤)، وأحمد (٦٥٠٧)، وصححه الألباني.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩)، وصححه الألباني.

والظاهر الثاني، وذهب إليه جماعة من المحققين؛ كالقرطبي وابن حجر وابن باز وابن عثيمين.

ويؤيده حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَحْسَبُ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(١).

كم بين النفختين؟

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أُبَيَّتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أُبَيَّتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أُبَيَّتُ، «ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ». قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبُلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَرُوِيَتْ رَوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ تَحَدُّهَا بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤١٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

المطلب الثاني: البعث:

البعث في اللغة: يطلق على معان منها:

- ١ - الإرسال: يقال: بعثت فلانا أو ابتعثته، أي: أرسلته.
 - ٢ - الإثارة: وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة: بعثتها، إذا أثرتها وكانت قبل باركة.
- اصطلاحاً: إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم للحساب والجزاء.
ويعبر عنه بالنشور، فهو مرادف له في المعنى.

والأدلة عليه لا تحصى من الكتاب والسنة، ومنها قوله تعالى: ﴿رَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَشُبُّعُنٌّ﴾ [التغابن: ٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: (لَنْ يُبْعِدَنِي كَمَا بَدَأَنِي)، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: (اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُؤَلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»^(١).

ومبدأ البعث مَطَرٌ يرسله الله، فتحيا الأجساد.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٧٤).

عن ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «... ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ
الطَّلُ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ:
يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ»^(١).

وورد في بعض الأخبار أن هذا المطر يستمر أربعين يوما، وإلى هذا أشار ابن

القيم بقوله:

وإذا أراد الله إخراج	بعد الممات إلى المعاد الثاني
الورى	
ألقى على الأرض التي هم تحتها	والله مقتدر وذو سلطان
مطرًا غليظًا أبيضًا متتابعًا	عشرًا وعشرًا بعدها عشرا
فتظلل تبت منه أجسام الورى	ولحومهم كمنابت الریحان ^(٢)

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٤٠).

(٢) نونية ابن القيم، الأبيات رقم (١٣٨ - ١٤١).

المبحث السابع: الحشر والموقف:

الحشر في اللغة: هو الجَمْع، مع السَّوْق^(١).

واصطلاحاً: هو جمع الأموات وسَوْقُهُم من قبورهم إلى الموقف بعد البعث.

وهو ثابت بالكتاب والسنة، وأجمع عليه المسلمون.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

ومن معالم الحشر:

١- تبديل الأرض:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وعن حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»^(٢).

و«العَفْرَاءُ»: بيضاء إلى حمرة، و«النَّقِيُّ» (بفتح النون وكسر القاف وتشديد

الياء)، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال. قوله ﷺ: «لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ

لِأَحَدٍ»، أي: ليس بها علامة سكنى، أو بناء ولا أثر.

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (٦٦ / ٢)، مادة «حشر».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

قال بعض الشراح: فيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جدا؛ لانعدام المعالم الموجودة الآن؛ كالجبال والصخور الكبيرة ونحوها^(١).

٢- أول من يحشر:

أول من يُحشَر من الخلق، هو نبينا محمد ﷺ، لقوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ»^(٢).

٣- صفة حشر الناس:

يُحشَر الناس حُفَاة لا نعال عليهم، عُرَاة لا كسوة عليهم، غُرُلَا لا ختان فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(١) قال الحافظ في الفتح (٦٥٢١): «وقد وقع للسلف في ذلك خلاف، في المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، هل معنى تبديلها: تغيير ذاتها وصفاتها، أو تغيير صفاتها فقط؟ وحديث الباب يؤيد الأول. وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، والطبري في تفاسيرهم، والبيهقي في «الشَّعْب» من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، الآية. قال: (تُبَدَّلُ الأرض أرضا كأنها فضة، لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة)، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨).

وقول النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ...»^(١).

ولما سمعت عائشة ذلك، قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، النَّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟! قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»^(٢).

وفي حديث عبد الله بن أنيس أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاةَ غُرْلًا بِهِمَا». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بِهِمَا؟ قَالَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ»^(٣).

ويحشر الكافر على وجهه؛ لحديث قتادة عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ ﷺ: «الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!». قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى، وَعِزَّةُ رَبَّنَا^(٤).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩)، واللفظ له.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٠٤٢)، وحسنه محققوه.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

ثم يُساق الناس إلى الموقف الذي أعدّه الله - تبارك وتعالى - مكانا لاجتماع خلقه فيه، وشرفه - جَلَّ وعلا - بنزوله فيه لفصل القضاء بين عباده؛ ويصيب الناس من الشدة والكرب ما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

٤ - دنو الشمس:

عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ^(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَمَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ^(٢).

ويكون طائفة تحت ظل الله - تعالى -، منهم السبعة الوارد ذكرهم في قوله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهُ، وَرَجُلٌ

(١) الحقو: الحصر، وموضع شد الإزار.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٦٤).

تَصَدَّقْ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

المبحث الثامن: الشفاعة العظمى:

الشفاعة في اللغة: مأخوذة من الشَّفَع، الذي هو ضد الوتر. وقد أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]، يعني: كل شفَع وكل فرد^(٢).

والشفَع: الزوجي، والوتر: الفردي، بلغة الرياضيات المعاصرة.

وهي في الاصطلاح: التوسط للغير بجلبٍ منفعة أو دفع مَضَرَّة.

وقد تكون الشفاعة حسنة يُثاب عليها الإنسان، كما قال ﷺ: «اشْفَعُوا

تُؤَجَّرُوا»^(٣)، وقد تكون سيئةً يأثم عليها الشافع، كما قال الله - تعالى - : ﴿وَمَنْ

يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

والشفاعة باعتبار الشافع نوعان:

الأول: خاصة بالنبى ﷺ.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٦٦٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٠٣١)، من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تنظر الأقوال في تفسير الآية، في: «تفسير ابن كثير» (٨ / ٣٩١-٣٩٢).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٣٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٢٧)، من

حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: غير خاصة به.

والنوع الأول له صور:

١ - الشفاعة العظمى:

وهي الشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ لأهل الموقف، حينما يُحْشَرُ الناس ويُساقون إلى ذلك الموقف الرهيب العصيب، الذي تشيب منه الولدان، وتدنو الشمس منهم قَدْرَ ميل، ويلحق بهم من الكَرْبِ ما لا يطيقون؛ لذلك يتمنون الخلاص، «فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ تَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ! نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ،
اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ
غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ
كَذِبَاتٍ! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ
وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي
قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ
نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ،
وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ عِيسَى:
إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ
ذَنْبًا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي! اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ
اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟!
قال ﷺ: فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ -، ثُمَّ يَفْتَحُ

اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ»^(١).

وهذه الشفاعة العظيمة للنبي ﷺ هي المذكورة في قول الله - عز وجل -: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

٢- الشفاعة في استفتاح باب الجنة:

وهذه ثابتة في الأحاديث الصحيحة؛ كقوله ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْحَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أَمْرٌ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»^(٢).

وهاتان الشفاعتان الأولى والثانية خاصة بالنبي ﷺ.

٣- الشفاعة في تخفيف العذاب عمَّن استحقه:

والمقصود بها شفاعته لعمه أبي طالب؛ لأنه كان يحوط النبي ﷺ، وينصره، ويدافع عنه، فكوفئ بذلك أن شفَع له ﷺ بتخفيف العذاب دون رفعه. فعن أبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧١٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيَجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»^(١).

٤ - الشفاعة فيمن دخل النار من أهل الكبائر، أن يخرج منها:

وهذه شفاعته ﷺ في عصاة الموحدين الذين دخلوا النار، فيشفع لهم في

خروجهم منها. والدليل عليها قوله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»^(٢).

النوع الثاني: شفاعة غير النبي ﷺ:

ولها صور، منها:

١ - شفاعة الملائكة:

فالملائكة يشفعون، والدليل على ذلك قول الله - عزَّ وجلَّ - ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٥ و٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأحمد (١٣٢٢٢)، من

حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي حديث الشفاعة الطويل يقول الله - عزَّ وجلَّ - : «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ،
وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(١).

٢ - شفاعة النبيين:

والدليل عليه الحديث السابق، وفيه قول الله - عزَّ وجلَّ - : «شَفَعَتِ
الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ»^(٢).

٣ - شفاعة المؤمنين:

وهذه أيضا شفاعة ثابتة في الآخرة، للحديث السابق.

٤ - شفاعة الشهداء:

الشهداء هم الذين قتلوا لتكون كلمة الله هي العليا. ومرتبهم فوق مرتبة
الصالحين، كما قال الله - تعالى - : ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي
سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه.

والشهداء لهم كرامات عند الله؛ منها ما جاء في قوله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»^(١).

٥ - شفاعة بعض الأعمال الصالحة:

ومن ذلك: القرآن والصيام، كما دل عليه قوله ﷺ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنْعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنْعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»^(٢).

المبحث التاسع: الحساب ونشر الدواوين وتطهير الصحف:

والكلام عليه في خمسة مطالب:

المطلب الأول: معنى الحساب، والأدلة عليه:

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألباني.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢٠٣٦)، وقال: «صحيح على

شرط مسلم، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٢).

الحساب في اللغة: العدد، والإحصاء^(١).

وفي الاصطلاح: هو إطلاعُ الله عباده على أعمالهم، ومقادير الجزاء عليها.

ودلت عليه أدلة كثيرة جدا من الكتاب والسنة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهو حساب عظيم دقيق، لا يفوت شيئا.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].
وهذا يوجب للمسلم ألا يتهاون بالحسنات وإن صغرت، ولا بالسيئات وإن صغرت، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ويطلع العباد على سجلات أعمالهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [أل عمران: ٣٠]، ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا

(١) ينظر: «مختار الصحاح» (ص: ٧٢)، مادة «حسب».

أَلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿[الكهف: ٤٩].

المطلب الثاني: أحوال الناس في الحساب:

الناس يوم القيامة من جهة الحساب ثلاثة أصناف:

١ - من يُحاسب حساباً عسيراً:

وهذا للكفرة والمشركين، وبعض عصاة الموحدين، يكون بالمناقشة والاستقصاء.

٢ - من يُحاسب حساباً يسيراً:

ومعناه أن تُعرض على العبد ذنوبه ويُقرَّر بها، ثم يتجاوز الله عنها. وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨].

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعُرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُدْبٌ»^(١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٧٦).

وعن صفوان بن محرز المازني قال: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ
بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ:
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ (أَي:
سِتْرَهُ)، وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ
رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا،
وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ...»^(١).

٣- من يدخل الجنة بغير حساب:

وهم الصفوة والخيار المذكورون في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة

بغير حساب.

المطلب الثالث: أوليات في الحساب:

١- أول الخلق حسابا: هم أمة محمد ﷺ:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ
يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ، وَنَبِيِّهَا؟ فَنَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ»^(٢).

٢- وأول ما يحاسب عليه العبد: الصلاة:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٩٠)، وصححه الألباني.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(٢).

ولا تعارض، وإنما يُقال: أول ما يحاسب عليه العبد فيما يتعلق بحقوق الله: الصلاة، وأول ما يحاسب عليه فيما يتعلق بحقوق العباد: الدماء.

المطلب الرابع: عمّ يكون الحساب؟

يحاسب الناس يوم القيامة عن:

١- الإيمان، واتباع دعوة الرسل:

وشواهد ذلك كثيرة جداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

٢- النعيم الذي يتمتع به العبد:

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥-٤٦٧)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٣)، و٦٨٦٤، ومسلم (١٦٧٨).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَعْنِي الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَتُرْوَيْكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(١).

٣- العهود والمواثيق:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

٤- السمع والبصر والفؤاد:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٥- الحساب العام:

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وصححه الألباني.

كما جاء في الحديث الجامع حديث أبي بَرزَةَ الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ»^(١).

المطلب الخامس: ماذا بعد الحساب؟

في ختام مشهد الحساب الأول تُنشر الكتب وتتطاير الصحف، ويُعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا.

والناس - حينئذٍ - صنفان:

١ - المؤمن: فيؤتى كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حسابا يسيرا، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورا. وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سرَّ واستبشر، وأعلن هذا السرور، ورفع به صوته يقول: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَعُوا كِتَابِيَةَ ۝ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ۝ فَهَوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدرامي (٥٥٤) وصححه الألباني.

٢- الكافر والمنافق وأهل الضلال: فإنهم يؤتون كتبهم بشاهم من وراء ظهورهم، وعندئذ يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور، كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۗ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢]، وقال - سبحانه - : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ ۗ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ ۗ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۗ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ۗ خُدُوهُ فَغُلُّوهُ ۗ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣١].

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

ثم بعد قراءة الكتاب: يكون هناك حساب - أيضا - لقطع المعذرة، وقيام الحججة بقراءة ما في الكتب.

المبحث العاشر: الموازين:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معناه ودليله:

الموازين جمع ميزان، وهو في اللغة: الآلة التي تقدر بها الأشياء خفة وثقلا^(١).

وأما في الاصطلاح؛ فيراد به: ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

وقد دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف.

قال الله - تعالى -: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^{١٣} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴿المؤمنون: ١٠٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢).

وأجمع السلف على ثبوت ذلك.

(١) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣ / ١٧٦)، مادة «وزن».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٩٤).

المطلب الثاني: صفة الميزان:

هو ميزان حقيقي، له كفتان، لحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَتَوْضَعُ السَّجَّالَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ»^(١).

واختلف العلماء هل هو ميزان واحد أو متعدد؟

فقال بعضهم: متعدّدٌ بحسب الأمم، أو الأفراد، أو الأعمال؛ لأنه لم يرد في القرآن إلا مجموعاً، وأما إفراده في الحديث فباعتبار الجنس.

وقال بعضهم: هو ميزان واحد؛ لأنه ورد في الحديث مفرداً، وأما جمعه في القرآن فباعتبار الموزون.

وكلا الأمرين محتمل، والله أعلم.

وأما اللسان في قول المؤلف: «وَالْمِيزَانُ لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ»، فاللسان ما يكون بين الكفتين في الميزان القديم، ليعرف به تساوي الكفتي.

وذكرُ اللسان لم يرد في الكتاب والسنة، ولم يصح عن الصحابة، وإنما ذكر الميزان عند الحسن البصري، فقال: «له لسان وكفتان»^(٢).

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٢١٠).

وقال ابن حجر: «قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد تُوزَن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال»^(١).

المطلب الثالث: ما الذي يوزن في الميزان؟

قال المؤلف: «وَالْمِيزَانُ لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ، تُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ»؛ فجزم بأن الذي يوزن هو: العمل؛ لظاهر الآية السابقة والحديث بعدها.
وقيل: يوزن صحائف العمل؛ لحديث صاحب البطاقة.

وقيل: يوزن العامل نفسه؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»
وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»^(٢).

وجمع بعض العلماء بين هذه النصوص: بأن الجميع يوزن، أو أن الوزن حقيقة للصحائف، وحيث إنها تثقل وتخف بحسب الأعمال المكتوبة صار الوزن كأنه للأعمال. وأما وزن صاحب العمل، فالمراد به: قدره وحرمة.
قال الشيخ ابن عثيمين: «وهذا جمع حسن، والله أعلم»^(٣).

(١) «فتح الباري» (١٣/٥٣٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٥/٦٥).

المطلب الرابع: أمثلة على مثقلات الميزان:

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللُّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»^(٣).

•••

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢) واللفظ له، وصححه الألباني.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.